المنار

١٣١٥

يوم السبت ١٣ ذى القعدة سنة ١٣١٦ الموافق ٢٥ مارث (ادار) سنة ٨٩٩

﴿ تأثير العلم فى العمل ﴾

(إنما يخشى الله من عباده العلماء)

أنشأ الله الإنسان يعمل بإرادة تأتمر فى تحريك الأعضاء على العمل بأمر العلم الذى تنكشف به وجوه المصالح والمنافع فمتى كانت علوم الإنسان فى أفراده ومجموعه صحيحة منطبعة فى النفس بتكرر العمل أو بالنظر والاعتبار تصدر عنه أعمال جليلة وآثار جميلة . ومتى كانت العلوم مضطربة بامتزاجها بالأوهام أو غير منطبعة فى النفس لعدم التربية عليها والعمل بها والنظر فيها بعين التأمل والاعتبار فلا جرم أن الأعمال تأتى مختلة سيئة والسعادة إنما تنال بالأعمال فالأمة الجاهلة بعيدة عن السعادة .

العلم الإجمالى قلما يفيد صاحبه لأنه دائما عرضة للجهالة بما يرد على جزئياته من الشكوك التى لا تنفى إلا بالعلم التفصيلى الكامل . ألا ترى أن أكثر الناس يعلمون بالإجمال أن أمهات الرذائل وكبائر المعاصى من أسباب الشقاء ولو كان هذا العلم صحيحا كاملا لا اضطراب فيه لصدرت عنه آثاره حتما وهى ترك تلك الرذائل والمنكرات ، وكذلك يقال فى أصول الفضائل والأعمال الصالحة النافعة يعلمها عامة الناس علما إجماليا

سطحيا يلوح فى الخيال ولكن لا أثر له فى النفوس والأرواح لأن كل صفات الروح تظهر على الجسد بالأعمال ومن كان علمه كاملا بشىء ما وظهر من أعماله ما لا ينطبق عليه فإنما يكون ذلك لأثر فى النفس أقوى من ذلك العلم كالوجدانات والانفعالات العارضة فإن النزيه ربما ينطق بالسب والهجر من القول لغضب شديد يعرض له لكنه لا يلبث أن يعود إلى رشده وأمثال هذه النوادر التى تعرض للعلماء والمهذبين لا تحبط أعمالهم ولا تنحرف بهم عن جادة السعادة « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » .

خفيت هذه المسألة عن الجاهلين بعلم النفس وعلم فلسفة الأخلاق فزعموا أن العلم لا يؤثر فى الحمل على العمل وربما يكابر بعض الذين يحسبون أنهم على شىء من العلم ويمارون فى القول لأنه جاء مجملا ولذلك رأينا أن نزيده بيانا بقليل من التمثيل .

إن الذى يعلم علما ناقصا أن الحسد والكبر « هو غمط الحق واحتقار الناس » رذيلتان تمقوت صاحبهما عند الله والناس وأنه يجب عليه أن يجاهد نفسه ويطهرها من رجسهما يشتبه عليه الأمر فى الجزئيات فيحسد ويتكبر ويرى أنه غير حاسد ولا متكبر وإذا قيل له فى ذلك لجأ إلى الاعتذار والتأويل فيقول فى الحق الذى غمطه ولم يخضع له لأنه جاء من قبل من يرى نفسه فوقه مثلا إنه ليس بحق وينتحل ما تجود به قريحته من الشبه لإثبات أنه ليس بحق وإذا لم يجد شبهة يطفىء بها نور الحق لقوة شعاعه يقول إنه حق ولكن جاء فى غير وقته ووضع فى غير موضعه فأنا أغمطه لا لذاته بل لأنه لم يأت على منهاج الحكمة (وكأن الحكمة مختصة به لا يعلم مواقعها غيره نعوذ بالله من الغرور) ويقول فى الإنسان الذى احتقره إن ما صدر منى فى شأنه مما يدل على ازدرائه واحتقاره لم أقصد به إلا بيان الحقيقة أو إسداء النصيحة للناس كيلا ينخدعوا به . والدليل على أن جهله بأخلاق نفسه هو الذى أراه باطله حقاً

وأعماه عن جزئيات رذائله أن ما وقع منه لو عرض على من هو أعلم منه بالأخلاق لجزم بأنه حسد وكبر لا يحتمل التأويل وعجيب أن مثل هذه التعلات تصدر من أمثل العلماء . اجتمع الأستاذ فضيلتلو الشيخ حسين افندى الجسر محرر جريدة طرابلس بالسيد جمال الدين الحكيم الشهير فقال له السيد « إن جريدتكم قد جمعت بين الكفر والإيمان » تكتب مقالة فى تحريم الكذب وقبحه ثم تملأ بعد ذلك بالكذب وغش الأمة بمدح الجهلاء الأشرار الذين تجعلهم أئمة علماء وأتقياء صلحاء قال « وإننا لا نخطو خطوة واحدة إلى الأمام ما لم نعط كل ذى حق حقه فنقول فى العالم عالم وفى الجاهل جاهل وهكذا » فقال له الأستاذ المحرر (إن هذا تقية لأن من عنيت مضرون يخشى شرهم) فقال له السيد « التقية مذهب الشيعة » .

ومثال آخر للشكوك التى ترد على العلم الناقص فتزلزله حتى ما تصدر عنه آثاره ـ ولولا ضعفه وزلزاله لصدرت ـ أن عامة المسلمين الذين يأتون الفواحش والمنكرات وهم يسلمون بأنها موجبة لسخط الله وعذابه فى الآخرة لا يأتونها فى الغالب إلا لأن علوما أخرى مسلمة مثلها لأنها جاءت من الدين عارضتها وصارعتها فقويت عليها بمساعدة الهوى والغرض كالكفرات للذنوب من الأعمال الصالحة فإنهم يسمعون من الوعاظ والخطباء أن من صام يوم عاشوراء غفرت له ذنوب سنة ومن صام يوم عرفة غفرت له ذنوب سنتين ـ السنة السابقة والسنة اللاحقة ـ ومن صام يوما من رجب استوجب رضوان الله الأكبر وأن من سبح كذا فى وقت كذا غفرت له ذنوبه وإن كانت مثل رمل عالج أو زبد البحر وأن الله يعتق فى كل ليلة من رمضان كذا والمجموع يستغرق الأمة ـ وكالشفاعات فقد توسع فيها الوعاظ والقصاص وفى الكتب منها العجب العجاب فيقولون إن العالم يشفع فى كذا بيتاً من جيرانه بعد الشفاعة لأهله وخلانه ويتوهم علماء السوء ويوهمون الناس أنهم هم الشفعاء

ليعطوهم ويعظموهم وبعض ما يوردونه فى ذلك باطل لم يرد فى الشرع (كما بيناه فى مقالات سابقة) وبعضه له معان صحيحة لا يترتب عليها هـذا الغرور الذى أبطل فائدة الإنذار الذى جاءت به الرسل والأديان . مثلا إن ما ورد فى المكفرات للذنوب مقصود به الترغيب فى الطاعة وإنما المراد بالذنوب التى تكفر هى الصغائر والهفوات التى لا يخلو الإنسان من الإلمام بها لا العظائم والموبقات كأكل أموال الناس بالباطل وشهادة الزور والكذب والخيانة وعدم الوفاء بالوعد فإن مثل هـذه لا تكفر إلا بالإقلاع عنها ورد الحقوق إلى أربابها وإلا لكان هدى الدين عبارة عن كلمات أو أعمال قليلة يباح للإنسان معها كل شىء ولبطلت فائدة النصوص المنفرة عن المعاصى والرذائل .

كيف يصح أن نقول إن حركة اللسان بكلمات أو صيام يوم أو أيام يكفر هذه السيئات الفاشية التى دهورت الأمة فى مهواة الشقاء وأنزلت بها صواعق البلاء والنبى ﷺ يقول « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وحج واعتمر وقال إنى مسلم ـ إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان » رواه بهذا اللفظ أبو يعلى بسند محتج به ورواه البخارى ومسلم وغيرهما بألفاظ أخرى بمعناها فى رواية مسلم التصريح بقوله «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» وظاهر هذا الحديث أن من كانت فيه هذه الثلاث فهو ليس بمسلم حقيقة ولا يغنى عنه ادعاء الإسلام والإتيان بأعماله العظيمة الظاهرة كالصوم والصلاة والحج ولكن العلماء أولوه وقالوا إن المراد به النفاق العملى ولكن لا يستطيع أحد منهم أن يقول إن هذا النفاق العملى يكفر بالصوم والصلاة والتسبيح لأنه إبطال للحديث ورفض له . وأما العفو وشفاعة النبى وهى عبارة دعاء يدعو به يوم القيامة فيستجيبه الله تعالى له فالحكمة فى الأول أن لا ييأس المسرف على نفسه لأنه إذا يأس يسترسل فى الفجور ومراد الشريعة رجوعه عنه والحكمة فى الثانية

إظهار كرامة للشافعين على أنهم لا يشفعون إلا بإذنه ولمن ارتضى والكتاب والسنة طافحان ببيان ما يرتضيه تعالى ومالا يرتضيه ونكتفى هنا بقوله تعالى « رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » على أن العفو والشفاعة مبهم أمرهما والأصل أن الجزاء على الأعمال (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وفى الصحيحين (قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه وأنذر عشيرتك الأقربين فقال يامعشر قريش اشتروا أنفسكم من الله تعالى لاأغنى عنكم من الله شيئا يابنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا يا عباس ياعم رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا ياصفية ياعمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا يافاطمة يا بنت محمد سلينى من مالى ماشئت لا أغنى عنك من الله شيئا) .

وأضرب لهم مثل العفو والشفاعة عند الملوك والأمراء الذين تتغير انفعالاتهم ويمكن للمقرب منهم أن يؤثر فى نفوسهم ويحملهم على ما يريد منهم ونحو هذا مما هو ممتنع فى جانب الله تعالى . هل يتجرأ آحاد الناس على الجرائم والجنايات جهراً اتكالا على عفو الأمير أو السلطان أو توقعاً لاحتمال الشفاعة له من أحد المقربين إليه ؟ كلا أن من يجاهر من الناس بالجناية رجاء العفو أو الشفاعة لا بد أن تكون له مكانة عند السلطان أو المقرب إليه بحيث يجزم أو يرجح أن العفو يناله بل أنه لا يسأل عما يفعل وإنما يكون هذا فى الحكومات الاستبدادية التى لا يتقيد سلطانها بشريعة ولا نظام ومثل هذا مستحيل فى جانب أحكم الحاكمين سبحانه وتعالى وهذه المسألة دليل واضح على مسألتنا وهى أن العمل إنما ينشأ عن العلم الأثبت والأقوى فى النفس . وإليك مع هذا البيان المعقول من البراهين النقلية الآية التى صدرنا بها هذه المقالة « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وحديث « أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية » .

ثبت بماذكرناه أن العقل والنقل متفقان على أن العلم الصحيح السالم من الشوائب والعلل . هو الباعث لإرادة الإنسان على تحريك الأعضاء للعمل . فيصح أن يستدل بأعمال الأفراد وأعمال الأمم على مكانتها من العلوم بوجوه منافعها ومصالحها وماعندها من الفنون التى يزيد العمل بها إتقانا وارتقاء ومعلوم أن سعادة الأمم بأعمالها وأعمالها لاترتقى فى مدارج الكمال إلا بالاتفاق والتعاون والاتفاق والتعاون لا يأتيان إلا من تهذيب الأخلاق وتقويم العادات وتصحيح العقائد التى يبنى عليها الترغيب والترهيب اللذان يقودان إلى التهذيب وحسبك من الدليل النقلى على ذلك حديث « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وتعليم التهذيب هو وظيفة العلماء ورثة الأنبياء وإهمال أصحاب هذه الوظيفة لها هو الذى يدهور الأمم فى مهاوى الشقاء . فثبت بهذا كله أن مبدأ ماحل بالشعوب الإسلامية من التأخر والانحطاط إهمال العلماء وظائفهم فى الإرشاد والتهذيب والداء إنما يشفى بإزالة علته وسببه واصطلام الجراثيم التى يتولد هو منها ولذلك جعلنا من مقاصد جريدتنا الأولية بيان تقصير العلماء وأسبابه والبحث فى العلل التى أفسدت التعليم وحالت بين المتعلمين وبين غايات العلوم والفنون التى يتدارسونها ومزج هذه المباحث بلوم العلماء تارة وحثهم على الإصلاح تارة أخرى وقد رأينا من أفاضل علماء مصر المنصفين وبلغنا عن مثلهم من علماء تونس والهند استحسان عملنا هذا وتقريظه وأنه يرجى الانتفاع به فزادنا هذا نشاطا واجتهادا والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .